

# كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف

لفريد الزمان الشيخ الأجل قوام الأدب

أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

رحمه الله

الناشر

شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى  
1431 هـ - 2011  
حقوق الطبع محفوظة للناشر  
شركة نوابغ الفكر  
هاتف: 25936402 ، فاكس: 27865553  
E-mail: nawabgh\_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، 780-869  
كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف / لابي عثمان عمرو بن  
بحر الجاحظ  
ط 1 - القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2011 ،  
48 ص ، 24 سم  
تمك : 3-95-6305-977-978  
1- الادب العربى - مجموعات  
ا- العنوان

ديوى : 810,8

رقم الايداع : 2011/15595

بِسْمِ اللَّهِ  
الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ

obeikandi.com

الحمد لله مقسم القسم، وبارى النسم، ومديم النعم، ومزيل النقم.  
حمداً يوازي بواطن نعمه، ويجازي ظواهر كرمه، وإن كان كرمه لا يوازي،  
ونعمه لا تجازي، بأقصى المحامد، وأبعد جهد الجاهد، وصلى الله على  
رسوله محمد وعلى الطاهرين من أسرته، والطيبين من عترته.

خرجت يوماً وأنا في خدمة قوام الملك ونظام الدين أبي يعلى أحمد بن  
طاهر أطال الله في المعالي لتهديب المعاني بقاءه، وحرس في اقتفاء المكارم عن  
المكاره فناءه، وحاط على الأفاضل بأنداد الفواضل نعماءه، وعطف على  
العلماء بحفظ أيامه وزمانه، وجمل الدنيا بعزة تمكينه فيها ورفعته مكانه،  
متنزهاً ومتفرجاً من الحفلة بالوحدة متسلياً، ومتشفياً ببرد النسيم عن حرقة  
كنت بها متصلياً، مترنماً بلواعجى اطفئ لظى صدرى لها بندى دموع سجم.

على أنى أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم،  
فاطلعت بى عينى لتتخلص مما بها على عين تموج بماء سلسال زلال كأنها  
انكدرت من سلسال فى زلال وإذا قريب منه روضة دعتنى واشرأبت بى على  
عين أخرى وهى تنفجر من محاجر الأحجار.

هذا الانفجار كأنها سيف الصبح سل من غمد الظلام يتهدد الشهب  
بورود النهار، أو كأها النضناض ينساب على الرضراض فى الأنهار، فقعدت  
عليه وحدى بل بوجدى خالياً، وبالنظر فيه سالياً، أتأمل منه مكانا خالياً،

وأتنفس نفساً عالياً، وأمنى نفسى بلعل وعسى، لأنه إذا امتلأت نفس الكريم تنفساً، فلحقتنى رفقة من أهل الأدب، خرجوا للطرب، أو لبعض الأدب، وفيهم شاب كأن جملة الجمال منه خلقت، وتفاريقها عنه سرقت، وعلى جميع الخلائق فرقت، يتصرف بشمائله فى القلوب، تصرف الهواء بالشمال والجنوب. له قدّ نخل فى حشى النحل دقة وصغر حوى طيب الجنى:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألأباب ما يفعل الخمر

وطرة كالغسق، على غرة الفلق. وأصداع ترقص على النار من وجنته، وتسلم عليها وتحرق العشاق دون الوصول إلى كوتر فيه وجنته، فيا له من حسن شعر يغبر من وجه المسك لونا، ورائحة وعزاً وصوتاً، على وجه يخجل البدر ويرده إلى محله من المحاق، ويشور الشمس ويردها فى المغرب دون الإشراق، فملكنا حسنه وإحسانه، وسبانا وجهه ولسانه، ولحق بى بعض من يخدمنى فاستدعينا بشيء من البوارد، على ذلك الماء البارد، الذى يتلألأ كاللألى من موارد كالمبارد، وتجعه أيدى الصبا وبلطفه كالهواء وينقيه من كل أذى وهباء، ويتخلل تلك الرياض غدير كالمراة المجلوة يطلع فيها السماء بنجومها، وكادت تخوض فيه زهرها بل غرقت بينها برسوبها وهجومها، وتجمشها عيون السحاب بسجومها، وقد اخضر شاربها كالزبرجد الأنضر، وافترت عن ثغر ويراغمها بزرقته وصفائه، وبزهر حصائه، كما تباريها باخضرار نباتها وكما أن السجاء تجارى الأرض باغبرار سحابها المتقطر، كذلك تبارى السماء بإخضرار نباتها المتفطر، وكما أن الأرض تشاكل السماء بأزهارها وأنوارها، كذلك السماء تماثلها بأزهارها وأنوارها، وكذلك الأرض:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل

والسماء تقول أن لى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لله  
ساجدين، والأرض تقرأ: والنجم والشجر يسجدان. فبينما نحن فى مفاخرتهما  
عبراً، وإن لم تكن نظراً. إذ طلع علينا شيخ مثر من ثياب الدياتج والحز،  
مغرق فى كسى الحرير مبطنة بالقز، مديد القناة قصير الخطى. يقومه الفرح  
والمرح كالسهم فىمضى ويقوسه السكر أو الكبر فىتمطى.

فحين قرب منا ملاً الأرواح خفة روح وظرفاً، والأنفاس ذكاء ونشراً  
وعرفاً، والقلوب ذكاءً وبشراً وعرفاً، والعيون جمالاً وملاحة وبهجة،  
والمسامع بياناً وفصاحة ولهجة. فقمنا واستقبلناه بل طرنا إليه، وطرنا حوالبه،  
بقلوب لهيبته خافقة، ونفوس على شيبته رافقة، فبرنا وسرنا، وحفنا ورفنا،  
وخص كلاً منه بعرفه وإحسانه. وأبهج جملتنا بمليح لسنه وفصيح لسانه.

فأقبلنا عليه وتركنا الشاب الذى تملكنا حسناً وأصبانا، وافتنصنا ظرفه  
وسبانا. وإذا للشىخ بهاء وأبهة، والفكرة فىه موقظة للألباب ومنبهة،  
ومجالسته موجهة عن الخمول ومنبهة، وله شعر أبيض مشرق يخمل بياض  
البازى، ولون أحمر ناصع بخجل حمرة الياقوت البهرمانى، وعينه تذكران  
حسن عيون النرجس لريان، وحاجباه يبصرانا هلال الفطر سروراً وحبوراً أو  
هلال رمضان، الأمر بالبر والإيمان. وإذا له ثغر يضحك من ندى الأبقوان،  
ولونه الدرى يهزأ بالمرجان وزنقه يشمخ تىها على الفتىان، ومحاسنه تضىء  
ببياض النعمة، وتزهو بنور النعمة، وتلوح بطيب النعمة فجمعت النعم أنواعاً  
وأولواناً، واستكملت الطيبات ضروراً وأفناناً.

وله صدر فسيح الأرجاء، يتسع لواردى الخوف والرجاء، فأقبل علينا  
بالوقار والسكىنة، والبلاغة المكينة. وقال الآن إذ سكتتم إلى وتمكتتم، ففىم

كنت؟ فقلنا له: أعجبنا هذا الماء الصافي عن الكدر، وهذا المكان الخالي من القتر. فقال الشيخ: هكذا يكون الخريف يصفو ماؤه، وتصفو نعمائه، ويرق هواؤه، وتخف أرواحه، وترتاح بنعيمه المقيم قلبه وأرواحه.

فانتدب الفتى الطرى، الشاب الأريحي، الذى تقدم ذكره وقال فى غضب وحرده يا خرف أبا الخريف تدل علينا وهو زمان أمراض مزمنة، وفصل جملة موهية موهنة، وحين طبعه حين وحى، ومزاجه موحش وبى، ووجهه عابس، وترابه يابس، وهواؤه كالح، وماؤه بطبخ حرارة الصيف إياه زعاق مالح. ولم نسيت فصل لربيع وفضله وسيماء ونشره، وطلاقتة وبشره، إذا أقبل يتهلل ويتبسم، ويكاد من الحسن يتكلم. . طرى الأحشاء والحواشى، ندى الغواذى والغواشى، لذيد الأبيكار سجسج الهواجر طيب الأصائل.

فقال الشيخ بركون، وتودة وسكون: ما اسمك أيها الظريف الطلق الوجه واللسان واليد، الماضى المضىء كالسيف فى الحد، والجد والحد، اللطيف فى المنظر والمخبر والمطلع والمقطع، فقال: اسمى الربيع بن الطيب، فما اسمك أيها الشيخ الكريم فى أخلاقه وأحلامه، السيد الغافر بعفوه خطأ غلامه، المتجاوز عن ذلل كلامه. فأنا كما قال السامى:

تبسطننا على الآثار لما رأينا العفو من ثمر لذنوب  
ونحن أولاك نطلب من بعيد لعزتنا وندرك من قريب

فقال: يا حبذا وجهك المبارك، قد جل باريه وتبارك، أهلاً بك وبقومك، ومرحباً بوقتك ويومك. اسمى الخريف بن المنعم فما ضجرك منى وأنا عن نفسى ناضح، بيرهانى اللائح الواضح. فقال الربيع: وأنا كذلك فاعذرني وقد عرفت طبعى فى تلونه وإن كان مقبولاً وحالى فى

تفننه وإن كان لذيذاً معسوراً. فقال الخريف: أنت يا فتى معذور، بل مشكور.

فروحك الريح تخفى كل منتنة و نارك النور تمحو كلمة الظلم

وأنت من فى وجهه شافع يمحو إساءته وفى حسنه دافع نافع، فهذا يزين كل مليح، وذاك بدفن كل قبيح:

وقبيح الصديق غير قبيح ومليح العدو غير مليح

فلم تفضل الربيع على الخريف، يا ربيع الظرف، وقد عرف العالمون بأسرهم واعترف العالمون أن الربيع فى طبعه كما وصفت متلون قليل الوفاء، كثير الأخلاق فى الجفاء. لا يوقف على طبائعه وهى كأبى براقش ولا يوثق بسجاياه وهى كأبى قلمون بينا ترى الشمس سافرة نقابها، وقد أرسلت سحبها، وأوحت طرق المارين وبلت ثيابها، وبيننا ترى أوجه السماء فى بكائه وانهلاله واستهلاله إذ عاد إلى ضحكته وتهلله واستغرابه، وبيننا تراها وهى تقرب سحبها وتبعد، وتصوب رياحها وتصعد، وتبرق بسحبها وترعد، إذا بدا لها واستبدلت بتلك الحالة إبدالها.

ليس كالخريف ساكن الجأش وقور الطباع ثابت الشيم مطمئن الشمائل، يوقظ الناس للاستعداد للشتاء بالجناذب طوراً وطوراً بهبوب الشمائل، وينبههم حيناً برده الخفيف الرفيق القارص بأنامله وتارة بغيمة اللطيف الرقيق اللاحظ بنواظره وهو فى هذه الأحوال كلها يميزهم بريعه الوافى فهم يمتارون ويحتكرون، ويتوسعون فى ما ينالون منه ويذخرون، ويقتنون فواكههم ويعصرون ويحتظرون.

## قال الربيع

أما ما ذكرت من تلون طباع الربيع، وأه كل ساعة يأتي بخلق بديع،  
وطبع غريب وكيف ينكر التلون من طبائع مختلفة، وأمزجة مركبة من عناصر  
غير مؤتلفة. وإنما فعل ذلك لكي يحيى كل عنصر بمزاجه، ويهز كل طبع بما  
يقتضيه من حاله لافتقاره إليه بالمناسبة واحتياجه. ولكي تراح الأمزجة  
بالتجدد بعد الأخلاق وتنتعش العناصر عن البلى فهو يتدارك بفعله اللطيف،  
ما أفسد الخريف، وذلك التلون حبيب إلى النفوس لأنه ركب من طبائعها،  
ولذلك شبه الشاعر معشوقة به في فعله فقال:

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله      صحو وغيم وأبراق وإرعاد  
كأنه أنت يا من لست أذكره      وصل وهجر وتقريب وإبعاد

وبعد فالنفس تمل والقلب يسأم الدائم والحمض أروح والجديد ألدّ. وأما  
ما ذكرت من سكون الخريف ووقاره فإنما هو لبرده وييسه والحي تكون حياته  
بالحرارة مع الرطوبة، والميت يكون موته من البرودة مع اليبوسة، فالربيع  
يحيى والخريف يبلى. وأما ما ذكرت أنه يميز الناس المطاعم ويفيض عليهم  
المناعم، فإن ذلك كله مما نتجته أيدي الربيع وقدمه تديره المصيب ولورثة عمله  
النافع وولدة كسبه المفيد وعلى الأيام يظهر عمل المدير المصلح، وبعد الأوقات  
يتبين تدبير العامل المفلح.

## قال الخريف

أما ما ذكرت من الخريف وأن طبعه بارد يابس كطبع الميت، وإن طبع الربيع حار رطب وهو طبع الحى، فقد جهلت أو نسيت وأخطأت أو خطيت، فإن الحرارة أوحى قتلاً وأعجل إهلاكاً من البرودة، والدليل عليه حال المبرسمين بالقياس إلى حال المفلوجين والكيفية الباردة اليابسة هي للأرض التي منها خلقنا وإليها المصير، وعليها قرارنا ومنها غذاؤنا وهي الملجأ والنصير، وهي طبع السوداء التي هي علة الآفات والثبات والحلم والوقار وأصحابها من ذوى العلوم الشريفة، والصناعات اللطيفة، هذا إن سلمنا أن طبع الخريف بارد يابس. وأما ما قلت أن ما يميزهم الخريف فمن صنع الربيع فكيف يكون ذلك والخريف وقت البذر والشتاء خليفته في تربيته ولذلك قال الشاعر:

إن الشتاء على كلوحة وجهه      لهو المفيد طلاقة المصطاف

فما للربيع إلا إخراجها مع الحشرات وإظهارها مع الهوام فيبلى إبلاءً حسناً مشفوعاً بسوء بلا. ويقترب فعلاً واحداً ممزوجاً بألف زدى، ومع ذلك فهو الذى يهيج الأخلاط الفاسدة فى أبدان الناس ويثير الكيموسات الرديئة فى أجسادهم ويذيب الكيفيات الخبيثة عن أجوافهم، وهى جامدة ويحلل الحرارة الغريزية عن أحشائهم، فتذهب بها فى الهواء المشاكل لطبعها ويترك أعماق أجوافهم هامة خامدة ويولد فى بشائهم وظواهرهم القروح والجرب والحكمة

والحصبة والحميات الدموية والأعلال الحارة، والخريف يطفى هذه الأمراض الدموية ويميت الحيوانات المعفنة ويفنيها أو يجعلها كالفانية من السكون كالحشرات والهوام وهو الذى يعد الطباع بميزانه ويسوى الأمزجة فى أبانه، وينعم الاس وسائر الحيوان بأنواع نعيمه وألوانه، وينصف النهار والليل عدلين مؤتلفين، ويجعل الغنى والفقير بميرته مثلين غير مختلفين، فيبوتهم مملوءة حبوباً، وحبابهم مشحونة مشروباً، ونهارهم مشغول باقتناء المير والذخائر التى أوسعها عليهم الخريف لشتائها، وحضهم كل بكرة على اقتنائها، وليلهم ملهى بالشراب الطيب والفواكه اللذيذة والرياحين الأرجة والخيرات البهيجة.

\*\*\*

## قال الربيع

أما ما ذكرت من الربيع وأن حره يودى أو يؤذى بالإنسان وسائر الحيوان، ووصفت العلل الحارة كالحميات الدموية مثل السرسام ونحوها من شدة الأسقام فقد أوهمت، أو وهمت، وتغافلت، أو أغفلت، إذ الربيع فى طبعه معتدل المزاج، ولذلك قال جالينوس من لم يهزه الربيع فهو فاسد المزاج، محتاج إلى العلاج، وإنما يقع أكثر هذه الأمراض فى صميم القيظ وحميم الصيف الحار، وإنما تأخذ الجار بذنب الجار.

والربيع باعتدال طباعه والتسام مزاجه وانتظام أحواله وائتلاف أخلاقه وأفعاله يقوى كل طبع ويبعث كل مزاج وينبه من فسد بعض الأخلاط من مزاجه، ليتشمر فى علاجه، ويحيى كل موات بعد ضياعه ومفتقده، ويضعف كل بال عن مرقدده، ويذكر بالحشر، ويدل على صحة النشر.

وأما هذه الحشرات والهوام فإن الله تعالى خلقها ولم يخلها من فائدة تعود بمصالح الخليقة، ولم يخلق شيئاً عبثاً بل كلها يختص بمنفعة للبرية، وإن سمومها إذا أخذت منها وأخرجت تدخل فى الأدوية المجربة، ويستعملها الأطباء فى الأدوية المؤذية. ويستشفى بها فى الأمراض المردية. ومع ذلك فإنها أعنى الهوام والحشرات تجتذب من الأرض وسائر الأركان السموم التى تخالطها مما يشاكلها، وتستلب منها ما تغذى به مما يلائمها ويوافقها، فتبقى

الأركان للنبات الذى يحتاج إليه الحيوان صافية عن كل شائبة وقذى، ويخلو النبات والأغذية نقية من كل عاثبة وأذى.

وأما ما قلت فى الخريف، وأن يوسع على الاس وجميع الحويان مآكلها وأغذيتها، ويفيض عليها فواكهها ورياحينها وأنبتها، فهذا بأن يكون من معائب الخريف أولى من كان يكون فى مناقبه وهو أحد الأسباب التى يكثر بها الأسقام المزمنة فى الخريف، فإنه يستكثر الناس من أكلها فتستوبله طبائعهم فيجلب المرض، أو الحرض أو السبب له والعرض، ولا يحتمله مزاجه الذى أقحله حر الصيف وأنحله ضرر القيظ واستصفته وقدة الهواء، كما يستصفى التنور المسجور رطوبة الشواء، وحلل حرارته الغريزية، وفش سخونته الطبيعية، حر الفصل فلا يطيق ما يأكله بالخريف ولا يحتمله ما يناله فيستوخمه ويستوبله ويولد عليه الداهية الصماء من الأمراض والمظلمة العمياء من الأوجاع ولذلك جاء فى الخبر أن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم.

والربيع بحمد الله مقل من الفواكه المضرة والأنبذة النيئة والأطعمة الوبيلة الوبيئة، والأغذية الوخيمة الرديئة، وغذاؤه للناس من الخبز الحنطى النقى واللحم من الرضيع والشراب العنبي العتيق المرى وتنقلهم بالفواكه التى قلما تعفن بمنزلة الرمان والسفرجل والتاح ونحوهما مما يبقى فى الشتاء بقوته ومشمومهم من الروائح الرائحة اللائح، والنور العبق الروائح.

والسافوم الذى يأخذ بطبع الربيع فى أوانه فيكون حاراً رطباً لا كما يكون فى الخريف بارداً يابساً مولداً الزكام، كقطر الزكام ومورثاً الصداع، يشق الرأس بانصداع، وهما من خصائص الخريف أعنى الزكام والصداع

ومسموعه من أغاني البلابل والقمارى ونحوها التى يهزها الربيع برواحه التى  
تعبر عن العبير والعود والقمارى لأن الربيع كما قال الزعفرانى:

وفصل فيه للروض احتيال      لان جميع ما لبست حرير  
ولالأغصان من طرب تشن      إذا جعلت تغنيها الطيور

\*\*\*

## قال الخريف

يا فتى ما أعذب لسانك، وأعجب شانك . وأملحك فى فصاحتك،  
وأفطنتك فى ملاحتك، حيث تعجزنا ببيانك الشهى، كما تسحرنا بلقائك  
البهى، فتأتى إلى ما أجمع العالمون على استهجانہ فتحسنه . وما أطبق الحكاء  
على استحسانه فتهجنه .

فإنه اتفق العاقل والجاهل والبار والفاجر على بغض الهوام المردية،  
وقلى الحشرات المؤذية، وكراحتها واستقذارها، واستنجاسها واستنكارها، لما  
تعافه الطباع فى إحساسها بالابتداء، ولا تخافه المعارف من مضارها فى  
الانتهاه .

وأنت تصنفها بكثرة منافع ومصالح وتكابر العقول السليمة والعادات  
المستقيمة . بلسانك الحول القلب وظرفك المخلط المذيل وبيانك المعن المفن وما  
اتفق الناس على السعى فيه والحركة له والبقاء به والحرص عليه والنين إليه،  
ومنافسة بعضهم بعضاً لأجله وبالجملة ما به صلاح العامل والآجل وفيه  
خيرات المعاش والمعاد حيث تعييه وتذيمه، وتهضم رايك بذلك وتضميمه، وهو  
نعمة الله التى جعلها مادة الحياة وصورة البقاء لأجل من يستكثر منه فلا  
يستمرئه . وبسبب من يستعزز فلا يهنته وتروى له الخبر الوادر فى الربيع وتحيله  
عن حالته، وتقلبه عن قلبه وهينته، فإنه قال إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً

أو يلم وإنما قاله للمواشى دون الناس فإن الربيع لا ينبت شيئاً ينالونه فيحبطون منه فويح لسانك إنه حسام، ألدّ الخصام، ملتهم المحامد قاذف المذام.

أما الكلام فى الحشرات والهوان فإن استضرار الناس بها معروف وانتفاعهم بسببها منكر وغوائلها جليلة، وعائدها خفية. وأما ما ذكرت أن بسمومها يستطفع بعض الأخلاط الفاسدة فلعل تلك الأخلاط منها تولدت فى النبات وبها اختلطت بالأمزاج والأمشاج وبروائحها امتزجت بالحيوان فهذا ما بطن من حالها وما كمن من أفعالها فأما الظاهر فإن الأفاعى والحيات، والعقائب والجرارات، ونحوها فهى قاتلة معطبة أو مؤذية مؤلمة ولا تخلو من إتلاف، ولا تعرى من إنداف.

وأما النعم الطيبات التى جعلها الله رزق الخلق وأنبتها فى الخريف فهى مبتغاة مرتضاة محبوبة إلى الخلق مقتضية وهى تشتهىها الأنفس وتلذ الأعين وبها وعد المتقون فى دار البقاء. وإياها منى الأبرار إلى مثابة الثواب والجزاء. ولكنك أعطيت مبتدئاً ما استرددت منتهياً، واصلت قياساً، تبنى عليه ثم هدمت منه أساساً.

فقلت بآخره ينال الإنسان فى الربيع من المأكّل والمشارب والمشام والمسامع كيت وكيت، وحكيت من طريق التنعم ما حكيت، وما افتخرت إلا بما أقناه الخريف وأعطاه، ومهده للخلق ووطاه، وإن لم يكن به الاستمتاع إلى وقت الربيع، وقد يبقى منه الكثير إلى طلوع الخريف وقلما يستمتع به المرتبِع وذلك لأنه مملوء بسخونة الهواء، الذى يمنع من استيفاء الغذاء، ولا يهناه أن نشط فى الامتلاء، وهو مملؤ بأخلاقه الهائجة، وكيموساته المائجة،

ويعنيه من أمرها ما يثنيه عن تمتعه ويضجره بعمره، فضلاً عن تفقد عيشه بالتنعم وتعهده أمره، اللهم إلا الأغنياء الذين يقل عددهم، وتكثر عددهم، ولهم أيضاً حاشية وغاشية، وعليهم غادية وعاشية.

فالحاجة عامة والغنية والقنية فى الربيع معدومتان ثم إن وجد واجد فهو كمعدوم لأن أيامه مشغولة مزحمة أولها من الحوائج البشرية، وهى مشغلة ومحجمة أوسطها بالحرارة الشمسية، وهى مبغضة ومقدرة آخرها من الحشرات الأرضية، والقاذورات الهوائية، والعفونات الربيعية.

وليله غفوة كحسوة طائر، أو قبسة عجلان أو خلسة زائر. وأما المخترف فنهاره بقدر ما يكتسب فيه ويقترف، ويعمل به ويحترف، ويقضى المهمات، ويكشف الملذات، وليله للطرب، وقضاء الأرب، والتنعم والعجب كل العجب ممن يستوخهم فيه ما يناله من الطعام، وهو يقوده بأشهى الأدام، ويوسقه بأهناً المدام.

وذكر جالينوس أن الأوباء التى تقع من العفونة تعم أفناء الناس إهلاكاً وإفناء، إلا مدمنى الخمر فإنهم يتخلصون لأفضول الخمر لا تتعفن، فالخريف يمتع بالطيبات المطلوبة، والملاذ المحبوبة، ويصلح ما أفسده القيظ بمزاجه الحار اليابس بترطيب الشراب المرى، ويسوى ما عوجه الصيف من النحول والذبول بتغذية الطعام العنى، فهذا صلاح الخريف وفساد الربيع.

\*\*\*

## قال الربيع

الله أنت من شيخ يبهر بل يبهت العقول، فى ما يقول، ويعمى بل يعمه  
الذكى الفطن، بما يظهر مما يريد أو يبطن، إلا أن كلامه لا يعدو مناعم  
المطاعم أو مطارب المشارب والشيخ مثلك يجب أن يقنع من الدنيا باللذات  
التي تروح الروح وتنفس النفس وتقر العيون وتسرح القلوب وتطرب الأفهام  
الذكية، وتطرى الأوهام الصفية، من مباهم الربيع وملاذه وطيباته ومساره.  
فكلما صعد الناظر فيه ناظره رأى وجهاً للسماء ببهجة البيضاء أبلج، وعيناً  
سوداء من ظلام الغمام ذات حدق أدعج، وهواء باعتدال قوامه وحسن نظامه  
جد سجع.

والشمس تسفر حيناً وحيناً تتقد والسماء تخلع طوراً وطوراً تنسحب  
والرعد يقهقه من برق يتسم، ونبل الوبل يرتقى عن قوس فى معارج الهواء  
تتلون وترسم والسحاب كخليع من الفتيان يسكب دمه وقد هزه طرب  
الراح. والنسيم نشوان والجو صاح، وكلما صوب ناظره إلى الأرض صعد  
بصره بوشى ديباج حكته يد الربيع ووشته، وغنمته أنامله بضروب من الرقم  
ونقشته، وطرزته من الورد باحمر رغماً للياقوت وأصفر غيضاً للعين، وأبيض  
خجلاً للدر واللجين، وصبغته أعنى الورد آونته على لونين ليتسلى به العاشق  
والمعشوق، ويتفائل باجتماعهما الشائق والمشوق، ومنعت منه طوراً باللين  
الناعم حاسة اللمس وتارة بالرائحة الفائحة حاسم الشم ومرة باللون الرائق

الرائع حاسة البصر ثم جلت كل وقت عروسًا من الرياض فى ألوان من الأزهار، وأنواع من الأنوار، وقد غسلتها أيدى الغوادى ومشطتها لمقابض الروائح، وعطرتها من النسيم المسكى بأطيب الروائح، فهى تختال وتبرج، وتتعطر وتتأرجح، وترفل من حللها وحليها بين مرقم ومنقط، ومسهم ومخطط، ومسير وملون، وموجه ومعين، ومقرط ومشنف ومتوج ومعصب ومكمل ومزبرج، وممسك ومعنبر، ومصنل ومكفر، ومدرم ومدنر. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وصيغته، ومن يآته بمثل صيغة لا صنعته، وهل له شريك فى صنعته:

وكأن السماء تجلو عروسًا      وكأننا من قطره فى نثار  
وكأن الرياض تنظر إلفا      وكأننا لحسنها فى نظار

فالربيع أنموذج الجنان وترابه المسك الأصهب، والعنبر الأشهب، والكافور الأزهر، وهوأوه لا حرّ ولا قر، وماؤه كوثر، وأنهار من ماء غير آسن وأنهار من عسل مصفى وأنهار من خمر لذة للشاربين، كذلك ماء الربيع خلوقى فى اللون عسلى بالذوق خمري بالصفاء والاستمراء، وأما ما ذكرت من اعتدال زمان الخريف المسوى بالميزان فهذا الاعتدال بالحقيقة موجود فى الربيع، فإنه معتدل الليل والنهار والأصائل والهواجر، وذلك الاعتدال الذى هو للأوقات موجود أيضًا فى الكيفيات لاستوائها فى الوزن من الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وهو مرضى.

والاعتدال الذى للخريف مسخوط الكيفيات لخروجها عن الاعتدال إلى البرودة واليبوسة، فالربيع من الأركان بمنزلة الهواء فى اعتداله ولطافته. ومن أحوال العمر بمنزلة الصبى فى طراوته وطلاوته، ومن الأخلاط بمنزلة الدم فى

عذوته وحلاوته، لأنه شباب الزمان، وريعان الأكوان، وعنوان العام،  
وعنفوان الأيام، وباكورة العمر، وبكر الدهر، وأنف الكاس، ورأس النفس  
بل هو عين كل رأس، ومطلع القصيدة، وأول الجريدة، وبالجملة الربيع لب  
الزمان والخريف قشره والربيع نقيه والخريف عظمه والربيع صفوه والخريف  
كدره والربيع سلافه والخريف عكره والربيع نديه والخريف درديه والربيع أنفه  
والخريف ذنبه. ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا، والربيع صدره والخريف عجزه  
وليست الأعجاز مث الصدور.

\*\*\*

## قال الخريف

تبين أى الفصلين أكثر مناعم، وأوفر مكارم، وأوفى إغناء وإقناء، وأقنى إعطاء وإيلاء، وأصفى ابتداء وانتهاء، وكل منا يمدح صاحبه ومن يمدح العروس غير أهلها ويذم قرنة ولا تعدم الحسنة ذاماً، فعلينا أن نبين وجه التفضيل بخصائص كل منهما وأنت تدعى أن الربيع أبين صفاء وأحسن اعتدالاً وأولى التماماً، وأبلغ إنعاماً.

أما الاعتدال بالذات فغير موجود للأشياء الكائنة الفاسدة لأنها لو اعتدلت وتكافأت قواها، وتساوت أجزاؤها، لامتنعت عن الفساد، لأن كل واحد منهما منع صاحبه عن القهر والعناد، وأما الاعتدال بالإضافة فإنه يكون فلنبحث عن الفصلين أيهما أبين اعتدالاً فقد علمنا أن الربيع أوله عند مبلغ الشمس رأس الحمل، والحمل تأثيره بالحرارة واليبوسة ولفضله برودة ورطوبة ورثهما عن الحوت الذى استدبره وبرودة ويبوسة يستفيدهما من الثور للذى يستقبله والميزان فى نفسه تأثيره الحرارة والرطوبة ولفضله برودة ويبوسة مستفادة من السنبله التى استدبرها وبرودة وطوبه من العقرب التى يستقبلها، فإذا قوبل كل واحد منهما بصاحبه ساوى الحوت والعقرب والثور السنبله فى كيفياتها وبقي الحمل فى نفسه حاراً يابساً لأنه بيت المريح وشرف الشمس وناهيك بما لهما من الحرارة واليبوسة والميزان بيت الزهرة وهى أحد السعدين

فبقى للميزان الاعتدال ولذلك سمي به؛ لأن فصل الخريف استفاد من الصيف حرارة ويبوسة ويستقبل من الشتاء رطوبة ويبوسة وهو في نفسه حار رطب.

وأما تشبيهك إياه بالشيخ وتشبيه الربيع بالصبي ثم تفضيل الصبي على الشيخ فهو أمر غريب ومعنى بديع وهب أن الخريف في طبع الشيخ والربيع في طبع الصبي أفي الدنيا أحد يفضل الصبي على الشيخ، فإن للصبي رطوبة موجية مضطربة تمنعه عن جودة إدراك المحسوسات فضلاً عن إدراك المعقولات.

والشيخ ذهب عنه رطوبة الصبي وانفصلت منه حرارة الشبيبة المفرطة واعتدلت كيميياته وتكافأت قواه وستاوت أحوال مزاجه فلذلك يكون أدرك وأدرى، وأبلغ وأبلى، وألطف وأطى وأذكر وأدكى.

وشبهت طبع لربيع بطبع الهواء فلعمري إن الميزان أليق بهذا التمثيل من الحمل لو أنصفت فإن المنجمين والأطباء أطبقوا على قولهم أن الميزان هوائي أى له طبعه وكذلك الدم.

وأما ما ذكرت أن الربيع استبد بالورد والنور والزهر واختص بالشراب الصافي والماء الخلوقي والهواء الرقيق والسماء المبرقة المرعدة فقد علمنا ذلك.

أما الورد فقد يكون أيضاً في أيام الخريف وخصوصاً النسטרن وهو أطيب ألوانه وكذلك النور والزهر وكلها في الخريف أطيب منها في الربيع لأن رائحتها محصورة فيها غير منبعثة عنها، وإن كان الربيع يزهي بالورد السريع الورود العاجل الصدور الذي لا يتشممه الشام صالحاً وإذا هو ذابل ولا يشمه اللامس وافيًا، وإذا هو ذاوى ولهذا يعير العشاق معشوقهم بالانتقال عن

العهد، والزوال عن الود، ويشبهونهم بالورد ويتشبهون بالآس وإنما منعهم أن يتشبهوا بالنرجس مع بقائه، وحسن عهده ووفائه، لأنه يكون تركيبة لأنفسهم وتفضيلاً لذواتهم على معشوقهم بالحسن الرائع البهيج، والطيب الريح الأريج، والطرف الفاتر الغنج، والقدر المستوى المنعرج، هذا مع بقائه ووفائه وإمتاع بنفسه جملة أشياعه وأتباع والخريف مختص به وبالزعفران أيضاً، وهو من الحسن ولطيب، والتفريح والتطريب، والنفع فى أدوية كثيرة ومعاجين جملة وزرائر عزيزة ما لا خفاء بهوله مدخل فى عداد العطر والطبخ والأدوية وإصلاح الأغذية وتطبيب المأكول ويبلغ فى التفريح مبلغاً لا يدركه شئ إلا العمر وقد يلقى فيها ويسقى الشارب تعمداً فيصير به ضاحكاً آتياً بعجائب، من المطارب والملاعب.

وأما الشراب الصافى فقد يكون أيضاً فى الخريف أصفى وأعتق منه فى الربيع ويفضل الخريف بالحديث الطرى وما للربيع فمن الخريف استفاد وكل خير له من عنده والشرب من أوفق الأشياء بالخريف وهو أصلح منه فى سائر الفصول لأن الشراب فعله التسخين والترطيب لأن هذا الفصل مكتس ومكتسب من الصيف ييوسة ومن الشتاء برودة فيسكر سورتها به ويفل غوائلها بسببه وهو ضار فى الربيع لأن فصله اجتلب رطوبة من الشتاء واكتسب حرارة من الصيف فلا يقوى على حرارتي الشراب والفصل ورطوبتيهما فلا تحملهما طباعه ولا يستقل بهما مزاجه وهو ضار أيضاً فى الصيف لإفراط الحرارة، وفى الشتاء أيضاً لكثرة رطوبته فأوفق الفصول للشراب الخريف وتعديل المزاج قلما يتأتى إلا لمن يتعاطى الشرب هذا مع ما فيه من الطرب والسرور والفرح وأجمع الأطباء أنهم ما وجدوا شيئاً يقوم

مقامه فى تعديل المزاج وتسوية القوى بلا مضرة واجتلاب الفرح والمسرة إذا  
أخذ على وجهه منه ولذلك قال فيه القائل:

هما ما هما لم يبق شىء سواهما      حديث صديق أو عتيق رحيق  
وهونت حلو الحادثات ومرها      بحلو حديث أو بمر عتيق  
وأما الماء الخلقى الذى اعتدت به فما أدناه من اعتداد، وأقصاه من  
سداد، وأى خير فى ماء اختلط بالطين، وامتزج بالتراب والصلصال المهين،  
فلا يمكن الشارب العطشان أن يقربه، فضلاً عن أن يشربه، وأما البرق والرعد  
فأى فائدة فى بارقه، ربما عادت شر صاعقة. وحرقت أشخاص كثيرة ولا  
تخلو من إحراق قط إذا كثر حتى أنه يذهب كثيراً من الأثمار مثل الكمثرى  
وغيره.

وأما الرعد فإنه فى قلة المنفعة كصوت الطبل بل دونه فإن فى هذا إنذار  
بأمر حادث وسلطان طارئ والرعد يهدم كثيراً من الأبنية البرية ويفزع جمماً  
غفيراً من البرية ولهذا يقال لمن يتهدد بباطل فلان يرعد ويبرق كما قال  
الشاعر:

أبرق وأرعد يا يزيد      فما وعيدك لى بضائر

\*\*\*

## قال الربيع

ما أحسن كلامك لو كنت تراعيه فلا تنقض في القابل ما تبنيه في الغابر  
زعمت أن الخريف تأثيره بالحرارة والرطوبة لأن الميزان يتولاه وهو هوائي  
دموى ثم جئت إلى ذكر الشراب وقلت هو موافق في الخريف لأن طبع  
الخريف بارد يابس وطبع الشراب حار رطب ونسيت ما ذكره الحكماء في طبع  
الخريف وأنه بارد يابس مبرح، مكرب مترح.

ولذلك كانت أمراضه مزمنة وإطباقهم كافة أن طبع الربيع حار رطب  
مفرح، مطرب مروح. ولذلك صارت الدماء به في الأجساد منبثة، والحرارة  
الغريزية منبعثة. وادعيت أن الشرب في الخريف أوفق وأطيب وأغفلت أن  
الشراب حار رطب وكذلك الربيع فالملاءمة بينهما أكثر. والموافقة لهما به أوفر  
والصحيح يتغذى بالمشاكل الموافق والمريض يعالج بالضد وهبك لم تعلمه، أما  
شهد لك الحس الصادق بطيب الشراب المورد على الورد، أو ما سمعت ما  
قال فيه القائلون. وما تقلب في أفانينه الشعراء والملهون، أو ما بلغك أن  
أحدهم يحلف ابناً له ألا يشرب فلما بلغ إلى آخره قال أو زمان الورد أيضاً  
وامتنع عن اليمين، ووثق أن يحنث فيه أو يمين.

وما حكى أن حائكاً في زمان المأمون كان يعمل عمامته وقته أجمع أكتع  
لا يستريح ليلاً ولا نهاراً، ولا يجم سراً ولا جهاراً، ولا يترك عمله في

الجمعات والأعياد ولا يفتر عن شغله بالنوائب والمصائب فإذا جاء زمن الورد ألقى حفه وأنشد شعراً واشتغل بالشرب أربعين يوماً ووصفت حاله لمأمون فأجرى عليه ما أغناه عن عمله، وأجزأه عن حياكته وشغله، ولو ذكرت كله لتعسر الخطب وطال الخطاب، وعرضت حبال المقال وامتدت طناب الأطناب.

وإنما قلنا ذلك لأن الشراب والريبع يتزاوجان بالامتزاج، ويتحدان في اللازدواج، فيقوى فعل الروح لاتخاذها بالراح وهذه هي علة الخمر في اجتلاب الفرح والأريحية والهزة التي تحدث للشارب، وذلك لأن الدم ينبوع الحياة ومطلع السرور بزيادة الحرارة الغريزية ولهذا يكثر الفرح والضحك في الصبيان ولمن يغلب عليه الدم وبهذا السبب بعينه يستولى الطرب على الناس في الربيع لأنه فصل معتدل والغالب عليه الحرارة والرطوبة وهما طبع الدم الذى هو ينبوع الروح فقد تبين أن الربيع يزيد في الروح ويمد في الروح ولهذا المعنى اتفق اشتقاق الروح والراح والروح كلها من الريح معنى مصيباً وأحسن ابن الرومى حيث قال:

والله لا أدري لأية علة يدعونه للراح باسم الراح

أريحه أم روحه تحت الحشا أم لارتيحاح نديمه المرتاح

ويسمى الدم أيضاً نفساً لهذا المعنى ولمشاكله الربيع الدم الذى هو مادة الروح وعنصر النفس يهيج الربيع الدم خاصة ويثير سائر الأخلاط عامة، وفي إثارته فائدة خفيت عليك وهى لكى يتدارك بالمعالجة والمداواة وشرب الأدوية التى تجعل الأجساد منقاة من الفضول مصفاة مسواة والريبع ينشر حتى الجماد وينبت حتى الأحجار، فضلاً عن الحشائش والأشجار، ويطلع الأزهار والأنوار، وينجم الأوراق والأثمار، ويظلل السماء بالمطارف الغبر، ويفرش

الأرض بالمطارح الخضر، ويجلجل الجبال بالحلل الحمر، ويعقد على الرؤوس  
أكلة من الأشجار المتشعبة ويحلل بها نتارا من الأنوار المونقة وينصب للطيور  
منابر تغنى عليها وتذمر أطيب الأغاني والزممر، ويطيب للناس لذيد العمر،  
فكأنه يضمهم عرس واحد ويجمعهم دعوة جفلى، ويقريهم مآدبة فوضى، أو  
كان كلهم ملك الأرض بأسرها وكأن أزهارها وأنوارها دراهم ولآل مشورة  
عليهم ووردهم وشقائهم دنائير ويواقيت مبذولة لهم وكأن نباتها زبرجد ومينا  
وفيروزج متوجة إياهم وتنزاح بها عنهم الكرب وتزول فهل يستوى هذا  
وقشف الخريف وظلفه ويبسه وقتره وغباره وكدره وتقبيضه وعبوسه، وتقطيعه  
وبوسه .

فعيون الناس فيه سائلة وعيون الأرض جامدة ووجوه السماء مغبرة،  
وحدود الخلق مصفرة، وظواهر الجبال ومفارقها من هول البرد مبيضة وبواطن  
الورى وصدورها من كرب الخريف مسودة والشمائل من الأرواح عاصفة  
وشمائل البرية بالأرواح عاسفة. فهذا حال الأغنياء منهم فكيف ظنك  
بالفقراء، الذين ما لهم غطاء ولا وطاء. وإنى مخيلتك فى الغرباء الذين ليس  
عندهم ثاغية ولا راغية ولهذا كان عمر رضى الله عنه إذا أظل الشتاء كتب إلى  
كل ناحية جاءكم الدعو الحاضر فاستعدوا له وإذا سفر الربيع نقابه واكتسى  
جلبابه ارتاحت لمقدمه القلوب وانتقت الغيوم عمن لا يملك قيد سيد ولا  
لبد، ولا يأوى إلى والد ولا ولد. وأما وصفك طبع الربيع بالاعتدال فالله  
كافيك وحسبك أنك تقول شيئاً وتعلم خلافه وتظهر معنى وتضممر سواه، وإن  
يدرى جميع الناس أنك مموه فيه، ومزخرف فى ما تخلصه منه وتستصفيه، أو  
ما يخاف الكذوب أن يذوب والفصل المعتدل لا تزمّن أمراضه، ولا تدمن  
أوجاعه ولا تقتل أعراضه وهذه قصيرة من طويلة .

## قال الخريف

حاصل كلامك أن الربيع ينبت ويورق، ويزهر ويرعد ويبرق، وبقي أن تنظر ما الشيء الذى يثمر ويجنى ويطعم، ويحصد ويقطف وينعم بنعم، ويزرع ويبذر، ويربى ويوفر، وليس ذلك إلا الخريف وتفضيل الخريف على الربيع أمر تفق عليه قد صنفت فيه كتب سائرة، ودونت به أشعار فى أيدي المتأدين دائرة.

فمن ذلك ما كتب على بن حمزة إلى أبى الحسن بن طباطبا العلوى فقال:

الخريف ثمرة الربيع كالشجرة التى تثمر ولولا الثمر لم تكن فى الشجر فائدة وفى الخريف تحصل أصناف ما يتمول وما يدخر من أقوات الخلاتق المسكة أرواحها إلى الخريف القابل وفيه يكون الزعفران وله على جميع أنوار الربيع فضل وله ورد بطلع كنصل السهم الناوكى وقرن الخشف فى لون الياقوت الأزرق، والللازورد المونق، كالعيون الشهل وأعراف الطواويس المحجلة ويفتح عن شعر كخيوط الذهب والخطوط الحمر، فى أغلاف الحلل الخضراء، وكشرر نار يلوح من حدائق البنفسج كألسن الحيات المنضضة ويطلع ورد الزعفران البرى فى السنة مرتين ربيعاً وخريفاً غير أن البرى لا يكون له نور الزعفران المستعمل وحشيش الزعفران يشبه أذنان الخيل ويصبر على البرد

فيبقى أخضر ناضراً والدروع مصفرة وله أصول كعقد من العاج وفلك مغازل الإبريسم ويبقى تحت الأرض طويلاً فلا يتغير متدثراً بخمّل كصوف الخبز وليف جوز الهند.

وفى الخريف يجد النخل، ويجمع أعسال النحل، وتقطف الأعناب التى فيها المنافع وفيه اجتناء الأقطان التى منها لباس الناس وزينتهم أحياء، وسترهم بعد الفناء. وفيه يقطف اللوز والجوز والعناب والسنبل وغير ذلك مما يعم نفعه، وفيه تتلاقح ذوات الأظلاف الأنسية والوحشية وفيه مطارح البزاة وفيه ينضج الأترج وأوراقه تشبه شقق الفريد إذا خطرت فيه الرياح خفقت خفق المطارف الخضر وله ورد كالفاغية وهى ثمرة الحناء ويتفتق عن مثل خرزات الزبرجد ثم يعظم وتشوب خضرتها صفرة الرحيق الأصفر فإذا خلصت الصفرة صار ذلك كقلال ظاهرها ذهب وباطنها فضة فيها حب كاللؤلؤ والمرجان وقشره ينفع العمود له، وإذا حرك عرف يفوق إرج رياحين الربيع ويستخرج منه دهن أذكى من النار وله حماض لذيد يطيب القدور وينفع المحزون وإذا تصرمت الرياحين فى الشتاء فالأترج غض طرى وقد اجتمع فيه وفى العنب الطبايع الأربعة فوصف الخريف وذكر فضائله واقتص خصائصه كما ترى فى النثر، وأما النظم فمن ذلك ما قاله أبو الحسن ابن الرومى من قصيدة:

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت	من كل نوع ورق الجوز والماء
إذا لما جفلت نفسى متى اشملت	على هائلة الحالين غبراء
يا حبذا ليل أيلول إذا بردت	فيه مضاجعنا والريح سجواه
وجمش القر السارى بصفحاته	من الضجيعين أحشاء وإحساء

واسفر القمر السارى بصفحته  
وريالها من صفاء الجو لألاء  
يا حبذا نفحة من ريحه سحرا  
يأتيك فيها من الريحان إمضاء  
بل فيه ما شئت من شهر تعهده  
فى كل يوم يد الله بيضاء  
ومن ذلك ما قاله عبد الله بن المعتز:

اشرب على طيب المزان فقد حدا  
والصيف من أيلول أسرع حدا  
واشمنا بالليل برد نسيمة  
فارتاحت الأرواح فى الأجساد  
وافاك بالأنداء أقدام الحيا  
والأرض للأمطار فى استعداد  
كم فى ضمائر تربها من روضة  
بمسيل ماء أو قرارة واد  
تبدو إذا جاد السحاب بقطرة  
وكأنما كانا على ميعاد  
وقال أبو عمر عبدان الفرخى يصف الخريف ويفضله على الربيع:

وأرى الربيع عيون قوم أغفلت  
طيب الخريف وسجسج الأسحار  
إن كان ذاك لواضحات دراهم  
بين الرياض ثنرن من أشجار  
فلها نثار فى الخريف يفوقها  
حسننا على الجنات والأنهار  
تحكى دنائيرا لنا أوراقها  
ولها فضيلة مطعم الأثمار  
وخلا الربيع فما لنا فيه سوى  
الأرواح والأنواء والأمطار  
ومخافة الإرعاد أثر صواعق  
ترمى البلاد وأهلها بالنار  
فاسعد بتشرينين وانعم منهما  
متعوداً بالله من آذار  
واشرب على ورديهما مشمولة  
من زعفران طالع وبهار

يغنيك عن ورد الربيع وعرفه  
يا حبذا أيلول جاء مبشراً  
والشمس فيه وفيهما ميزانه  
أخذ النهار وليلنا حظيهما  
وكفناك في ذم الربيع رواية  
فاذكر كلام نبينا في قوله  
إذ قال هل بخروج آذار لنا  
وقال أيضاً يصفه :

آذار جوك للغيوم مسخر  
وضر الشتاء بنا أضمر وبرده  
ركدت غيومك في السماء كأنما  
هذاك أول برده مستزايدا  
والشمس عن نظر الورى محجوبة  
تغدو وتمسى في أسار أصايب  
ما بين نيسان وبينك عامنا  
فمتى نريملاء السماء وتوبها  
ومتى يقل بكاؤها وربوعنا  
ومتى ترى شمس السماء شماته

عن شم طيب لطيمة العطار  
بالخصب بعد المحل في الأمصار  
حلت لوزن عادل المعيار  
فالليل عن وزن كنفاء نهار  
ينبيك عنها حامل الأخبار  
صلت عليك ملائك الجبار  
خرف القيامة فيه من بشار

إذ لست أنت لنا الخريف الأزهر  
فابعد رشيداً أنت منك أوضر  
غطى عليها منك لبد أغبر  
من ظل كانونين مرا أكدر  
فكأنها عذراء أو هي أستر  
ولها متى طلعت شعاع أعبر  
ضاع الربيع وضل ذاك المنظر  
إلا لبود لازورد أخضر  
من دمعها خربت وهذا أهدر  
بالغيم ييسمها شعاع أنور

أو ليس لليلك والنهار تساويا  
والفصل يؤذن بالحياة وطيبها  
عاماً أرتك عجائباً أيامه  
فيه وفي الماضي كسوف سنة  
موت الفجاءة والخوانيق التي  
أحكام كل من شهور ستة  
منها ثلاث قد مضت وثلاثة  
إن المنجم والطبيب تعجبا  
والفيلسوف بذاك أيضاً جاهل  
إن كان ذلك فى الورى فى دورها  
لكن أقول إذا أراد الهنا  
لا تكذبن فإننا بقضائه  
والفوز فى الدنيا والآخرة للذى

وقال أيضاً فى فضل الخريف على الربيع :

فضل الخريف على الربيع وحسنه  
وله مناظر حسن ذاك وزادنا  
يصفو الهواء لنا ويبرد ماؤنا  
نلتذ فيه صبوحنا وغبوقنا  
أن عم كل مدينة آثاره  
طيب الفواكه كلها أثماره  
ويطيب مرقدنا وتحمده ناره  
عبق النهار وسجسج أسحاره

وأرى المخالف ذا قياس فاسد  
إذ قال ضاهى النور فيه دراهما  
غفل الركيك عن المجالس كلها  
وتناثرت أوراقها مصفرة  
والمهرجان فخصب بنعيمه  
وتخاف وقع صواعق وبوارق  
وكذا المياه وهد واديها بها  
والمهرجان فورده عن ورده  
إذ كان فيه منافع ولطيبه  
والشمس فى الميزان فيه يستوى  
يسقيك من حلب الكروم جديده  
لا غول فيه ولا أذى لخمارة  
فاشربه مغتنماً لروح زمانه  
وارتد له طيب الغناء ومزهرا  
والزمر لا تقرع به أسماعنا  
هذا الزمان وما سواه دونه  
إن كان ينكر جاهل هذا بلا  
فإذا أتى النيروز فاقض حقوقه  
قد ضل لما راقه أنواره  
ما للخريف على الرياض نثاره  
فيه إذا ما دنرت أشجاره  
كالتبر أخلص فاستنار نضاره  
فإذا تنورز مقحل آذاره  
فيه وهدم رباعنا أمطاره  
مهما جرى وتدفقت أنهاره  
مغن يفضل حسنه نظاره  
لم يخل منه طيبه عطاره  
للوزن عدلا ليله ونهاره  
سلسا بلا مزاج يطير شراره  
لا كالعقيق مصدر مصطاره  
ودع الشقى موفراً أوزاره  
تشجى فؤاد متيم أوتاره  
إن الغناء يعيبه مزماره  
لفتى تساعده به أوطاره  
عقل فليس يضيرنا إنكاره  
ما دام يسعد ورده أزهاره

يأتى بوشك خروجه بشاره  
نيسان تأن إن دنا أياره

إذا ما انقضى عنك عامما يكر  
فإن الخريف جميعاً سحر  
يجلوهما نسيم ريح عطر  
يفوح التراب له المقشعر  
إذا ما رجا طيب وصل هجر  
وأحسبه من صدود حذر  
خدود خجلن لوحى النظر  
تكون ثماراً لتلك الشجر

عليك بالزهر الجنى  
فجاء فى خلق سوى  
ونسيم رياه الذكى  
به عن النور البهى  
يمس فى زى الهدى  
وهيئت فى حسن زى  
فى نظم الحلى

وإذا رجو فيه القيامة فارح أن  
وارقب طلوع النجم حتى ينقضى  
وقال الباذانى فى نعت الخريف:

وأسمعك الله بالمهرجان  
ولا زلت فى يعشة كالخريف  
ترى الماء فيه وذاك الهواء  
ترى الزعفران بأعطافه  
وأترجه عاشق مدنف  
ولون سفرجله حائل  
وتفاحه فوق أغصانه  
وما كنت أحسب أن الخدود  
وقال آخر:

فهناك إقبال الخريف  
تم اعتدالا فى الكمال  
فإق الربيع بحسنه  
وينوب ورد الزعفران  
أهدى إليك المهرجان  
ضد ضمخمت بالزعفران  
وتحلت التفاح والأترج

## قال الربيع

ما كنت أظن أنك ترضى بحكومة الشعراء وتقنع بالأشعار الركيكة فى  
هذا البابا وتكيل علينا بهذا الصاع، بل تهيل بالباع والذراع، فهناك منها السيل  
الذى يحكى سيل الربيع. فأما رسالة أبى الحسن على بن حمزة بن عمارة  
الأصبهاني فهى مقابلة برسالة له أخرى فى وصف النيروز كتب بها إلى أبى  
مسلم محمد بن بحر فقال:

هذا يوم عجمى مشرق الأرجاء، بهى الرواء، تمتع الذكاء، منير  
السماء، صافى الهواء، اعتدل مزاجه واستولى ليله ونهاره ترتاح له القلوب  
وتهتز له النفوس وتستريح إليه الأرواح يروق العيون ويؤنس القلوب، ويجلو  
الكروب، يوم مصطلح فى تفضيله على الأيام يهيج السرور ويصبى الكبير  
ويطرب الحلیم ويذكر الشيب الشباب ويجمع المتفرق ويؤلف المتنافر ويدنى  
المتباعد له نسيم المسك المشوب بالعنبر المداف يضاحك أرجوانه أقحوانه جلناره  
بهاره وخيره ياسمينه وورده نرجسه فتبرج بعد التعنس، وتنضر بعد التيبس،  
وابتهج بعد التعبس توشح بالزبرجد وتآزر بالإستبرق وتحلى بالياقوت  
والمرجان، ونفى عن الفتیان خواطر الأحزاب، فهممهم عليه موقوفة،  
وأشغالهم إليه مصروفة، وقلوبهم بالملاهى فيه مشغوفة، وعيونهم إليه روان،  
ونفوسهم عليه حوان، والظبا فيه تتنازى والطيور تتبازى، وناطقها فيه يطرب  
فيرتجل الأغانى ويقرب الأمانى ويغنى الشرب فيه عن كل صوت شج مطرب

إذا تحاذت تطارحت اللحان بفصاحة سحيان، وخال بن صفوان، فرجحت الأغصان بالنبرات والنغمات فهن بمخضرة الرياض ساجعة، وعيون الحوادث عليها هامة.

فمتى خطرت الرواعد ولمعت البوارق مرت الصبا أخلاف العهد فاهتزت له الربا والوهاد، وتلفعت بورود اليمن وتبسمت الأرض عن ثغور الأقحوان، بكتها دموع الغيث فى خير أوان، وأجل زمان، وتمايلت البقاع بالأزاهير الناضرة تمايل النشوان، يمس فى الأرجوان، واختالت القيعان والجنان، بدائع الألوان، زاهرة بأنواع نوار الغياض، وأصناف أصباغ الرياض، من شقائق حمر ترف بقطرات الدموع كالمشتاق، وفواقع صفر كألوان العشاق، وأزاهير رائقة، مشفقة موقنة، مونسة هى الدهر ضاحكة لبكاء السماء محيطة بواد الزرنود وهى كالمقر الصائل إذا جرجر ورمى بلعابه والضيغم الهائج إذا زمجر وزأر فى غيله فإذا اصطكت أمواجه، وأطبق ضجاجه، وهمهم وزخر وجاءت لواز به معتجرات بمطارف دكن أقبلت ضروب نباته عائمات موشحات بتهاويل رقمها المنمنم زهره مختالات عالمات بمجانفة الأمواج آمنات شبا الجوارح فنسأل الله تمام النعمة وإليه أرغب فى أن يجعلك بالنعمة تمامًا، وللمكارم نظامًا، وللدنيا قوامًا، بمنه.

ووصف على بن عبيدة الريحانى الربيع فقال:

الربيع رشيق القد طلق الوجه كريم الأخلاق لين الأعطاف حلو  
الشمائل، جم الفضائل، عطر الرائحة سليم الناحية فاخر البزة بهى المنظر  
سرى المخبر.

ووصفه ابن أبي طاهر فقال:

الربيع تام الجمال، حسن الدلال، عظيم الخطر، لطيف المنظر جميل  
الذكر، ذكى العطر لذيد النسيم، طيب الشميم، غزير النعيم، قليل الهموم،  
ظليل الغيوم.

وأما النظم فالقصيدة الأولى الألفية مقابلة بمثلها من قول بعض

الشعراء:

طلع الربيع بغيره زهراء	تجلى العيون بها الأقداء
وبدت وجوه الأرض بعد قطوبها	مفترة بيدائع الآلاء
فالأرض فى حلل وحلى مونق	فى ما حبتة به يد الأنواء
والروض يضحك عن بكى وسميه	بتألؤ من صنعة الأنداء
وترى الرياض كأنهن عرائس	يرفلن من صفراء فى حمراء
أوما رأيت الأرض غبراء الربى	حتى اغتدت فى برده خضراء
إن الربيع لبهجة الأرض التى	منها تكون جوهر الأشياء
وله هواء كالهوى من رقة	دقت عن الأوهام والأهواء
وإذا تنفس بالنسيم نسيمة	كتنفس الصبوات فى الأحشاء
زمن جديد للسرور تجدد	فيه استحلت حركة الصهباء

وأما القصيدة الدالية فهى مقابلة بما قال الحمدوى:

حتى الربيع فقد أتاك حميدا	بدلت من خلق الزمان جديدا
خلع السحاب على الثرى وشيا ترى	منه الثرى ذا ثروة محسودا

روض أفادته السحاب صنائعاً  
نشأت سحابته عليه فأنشأت  
فكأنها عدن لدى أكنافه  
عن أقحوان ضاحك متبسم  
فثغوره من لؤلؤٍ ولثاته  
ومعصفرات من شقائق ألبست  
فانهض بطرفك حيث شئت تجد له  
تحكى لك الوجنات قد أشعرتها  
قد وشحت أكنافه ببنفسج  
ترى العذارى من بهار باهر  
زهر يظل الطرف فى أكنافه  
فإذا الرياح مشين فيه ظللن من  
يصددن صد متيم متهزم

وأما القصيدة الرائية الأولى فمقابلة بما قال أبو تمام وبينهما بون بعيد:

رقت حواشى الدهر وهى تمرمر  
نزلت مقدمة المصيف حميدة  
مطر يروق الصحو منه وبعده  
غيثان فالأنواء غيث ظاهر  
وغدا الثرى فى حليه يتكسر  
ويد الشتاء جديدة لا تكفر  
صحو يكاد من الغضارة يطر  
لك وجهه والصحو غيث مضممر

يا صاحبي تقصيا نظريكما  
تريا نهارا مبصرًا قد شابه  
دنيا معاش للورى حتى إذا  
أضحت تصوغ بطونها لظهورها  
من كل زاهرة ترفرف بالندى  
محمرة مصفرة فكأنها  
من فاقع غض النبات كأنه  
أو ساطع فى حمرة فكأنما  
صغ الذى لولا بدائع لطفه  
والقصيدة الثانية الرائية مقابلة بما قال البحترى:

ألم تر تغليس الربيع المبكر  
مررنا على بطياس وهى كأنها  
كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى  
وفى أرجوانى من النور أحمر  
إذا ما الندى وافاه صبغًا تمايلت  
إذا قابلته الشمس قلت التفاتة  
وما حاك من وشى الرياض المنشر  
سبائب عصب أو زرابى عبقر  
إليها سقوط اللؤلؤة المتحدر  
يشاب بافرند من الروض أخضر  
أعاليه من در نشير وجوهر  
لعلوة فى جاديه المتعصففر  
والقصيدة الثالثة مقابلة بما قال ابن المعتز:

أما ترى بهجات الروض فى السحر  
فوق الندى واتساق الورد فى الشجر

إذا السحاب سقاها في الدجى خلعت      بعد السحاب عليها الشمس في البكر  
والروض من زاهر زاه بنظرته      وكامن منه في الأغصان منتظر  
حسبى من الورد توريد الحدود كما      حسبى مسرة محسود من البشر  
والقصيدة الرابعة مقابلة بما قال ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر      بمنظر فيه جلاء للبصر  
وهالها مصطنعاً لقد شكر      أثنت على الله بآلاء المطر  
والأرض في روض كأفواف الخبر      تبرجت بعد حياء وخفر  
تبرج الأئشى تصدت للذكر

هذا ما قيل من الأشعار، ولو استقصيت ما قيل في فضل الربيع لأدى ذلك إلى الإكثار، ويكفيك من فضائله أنه ما ينبغ شاعر إلا وله شعر في الربيع وأما الآثار، التي جاءت بها الأخبار، فكثيرة أيضاً والنوروز الذي هو عنوان الربيع تعظمه الفرس على سائر الأيام وتقول إنه يوم فيروزى روحانى فيه تحركت الأفلاك السبعة بعد أن كانت ساكنة وفيه دارت الكواكب السبعة فى أفلاكها بعد أن كانت واقفة وفى ساعة منه يزخر فلك فيروز بمعانى الأرواح لإنشاء الخلق وفيه خلق جرم الشمس ولذلك يقال أسعد ساعات النيروز ساعة الشمس .

وقال الحسن بن سهل : سأل المأمون على بن موسى الرضا عن النيروز، فقال : يوم عظمته الملائكة والأنبياء والملوك، فالملائكة عظمته لأنهم فيه خلقوا، والأنبياء عظمته لأنه أول يوم طلعت فيه الشمس، والملوك عظمته لأنه أول يوم من الزمان .

وعن عبد الصمد بن علي بن عبد الله رفعه إلى جده عبد الله بن عباس قال أهدى إلى النبي ﷺ في يوم نيروز جام فضة عليه حلاوة فقال ما هذا فقالوا يوم النيروز، فقال: وما النيروز، فقالوا: عيد الفرس. فقال: نعم اليوم الذي أحيا الله فيه العسكرة. قالوا: وما العسكرة. قال القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فأحياهم الله في هذا اليوم وردَّ عليهم أرواحهم وأمر السماء فأمطرتهم مطراً كالشسف، فلذلك اتخذ الناس صب الماء في النيروز سنة فأكل الحلاوة وقسمها بين أصحابه، وقال نيروزاً لنا كل وم.

ويقال أن في النيروز أظهر جم الملك مقادير الأشياء وتبرك الفرس صبيحته قبل الكلام بأن تلعق ثلاث لعقات من عسل وتبخر بثلاث قطع من شمع وتزعم أنه شفاء من ألف داء زعم بعضهم أن من ذاق السكر صبيحته قبل الكلام وأدهن بالزيت دفع عنه في عامه أنواع البلايا.

\*\*\*

## قال الخريف

رويت لنا يا بنى أشعاراً فى صفة الربيع وفضائله، وما تعرضت لنقص الخريف ورزائله، وعلى المناظر أن يقوى حججه ودلائله ويوهن براهين خصمه وشواهدة ليتضح الحق ويفتضح الباطل كما فعلنا ذلك، وإن لم نستوفه وأتينا على جمل من ذلك ولم نستقصه.

وأما ما ذكرت من فضيلة النيروز فللمهرجان أيضاً فضائل لا تحصى ومناقب لا تستقصى تزعم الفرس وغيرهم من الأمم أنه يوم خلق الله فيه الأجساد قراراً للأرواح، وفيه دحا الأرض دحواً ونشر الخلائق وهو يوم أفريغونى وعيد أفريذونى. وفى ساعة منه يتنفس فلك أفريغون لتربية الأجساد وفيه خلق الله القمر يوم خلقه كرة سوداء، فإذا كان يوم من المهرجان جلاها بضوئه، ويقال أن القمر فى المهرجان يوفى على الشمس وأسعد ساعاته ساعة القمر، ويقال أن قلة جبل شاهين ترى طوال أيام الصيف سوداء حتى صبيحة المهرجان، ترى بيضاء كأن الثلج عليها.

وزعم المؤيد المتوكلى أن يوم المهرجان يطلع الشمس بمهامير الواسط بين النور والظلمة وتتحرك الأرواح فى الأجساد، ولذلك سمته الفرس ميركان وتيمن الفرس صبيحة المهرجان بأكل الرمان وشم ماء الورد وهو يوم أفريذونى مر أفريذون فى طلب بيوراسف فظفر به يوم المهرجان الأكبر.

فهذا ما حضر من فضائل الخريف وأولائها وأولائها بأن يذكر أن الخريف في هذا الوقت الذي نحن فيه حاضر لخدمة قوام الملك ونظام الدين أطال الله بقاءه، وأدام في درج المعالى ارتقاءه، والربيع غائب عن حضرته، أنسها الله بدوام نعمته، مشتاق إليها والحاضر خير من الغائب والموجود خير من المعدوم.

فهذا آخر ما جرى بين الشيخ والفتى وافترقا بعد ذلك ..

والسلام والحمد لله أولاً وآخراً .. وباطنت وظاهراً ..

والصلاة على النبي محمد وآله أجمعين ..

وكتب يوم الخميس فى ثانى عشر ربيع الآخر ..

سنة إحدى وأربعين وأربع مائة .

(كذا بأصله)

\*\*\*